وعرض جوشر (نوع آخر منه) والبرقان القديم الصفراء انما هو استئصال الطحال

وكان الاطباء القدماء يعتقدون انهُ اذا استؤصل طحال انسان فانهُ يستطيع الجري باسرع مما كان قبل الاستئصال . وعليهِ قالوا ايضاً ان الفرس لا طحال لهُ فلذلك ضرب المثل بجريهِ وسرعتهِ . ولكن التشريح يدلُّ على ان الفرس ذو طحال كغيرهِ من الحيوانات العليا . بقي على الذين نزعت طحالهم ان يخبرونا هل باتوا اسرع جرياً مما كانوا قبل نزعها ام لا

عروس النيل

بينما انا اقلب صحيفة « الشباب » وجدت تحت عنوان « عروس النيل » كلاماً عنها يغاير الحقيقة فارسلت الى صاحب الجريدة كتاباً انبههُ فيهِ الى خطائهِ فاهتم بالامر وسعى في اظهار الحقيقة خدمة لها فاستفهماً من العلماء فقال في العدد الثامن من السنة الثانية ما يأتي بالحرف الواحد تحت عنوان « حقيقة عروس النيل »

« خصصنا افتتاحية العدد الصادر من الشباب في الثالث والعشرين من اغسطس الماضي بالكلام في « وفاء النيل » وقد جاء ضمن ما كتبنا ان القدماء من اجدادنا كانوا يقدمون للنيل اجمل عذراء عليها انفس الحلى . فكتب الينا احد الادباء ينكر علينا ما الصقناهُ بالقدماء ويقول ان ليس في التاريخ العلمي من دليل على القاء المصريين عذراء للنيل وانما هي خرافة تداولها الناس عن المؤرخ المقريزي « وقد ادهشنا كتاب الاديب الفاضل لاننا كنا نعلم ان هذه الحادثة مما دون في كثير من كتب التاريخ ومما ألفي في كثير من الدروس ولكننا قلنا ربما كانت واضعوها بعيدين عن اساليب النقد الصحيح والتحري الدقيق رغماً عن تقريرها في مدارس الحكومة المصرية فداخلنا الشك فيما كتبناهُ واردنا التثبت فقصدنا الى حضرة العالم الاثري الجليل صاحب العزة احمد بك كمال الامين الفخري لمتحف الآثار المصرية فانكر علينا ما كتبنا ونفى وجود فكرة تضحية الانسان عند قدماء المصريين في عهد حضارتهم . ولكنهُ قال لنا ان المصريين كانوا يمثلون النيل عند الاحتفال بقدومهِ — في العهد القبطي — بتمثال هو ما قال عنهُ واضع تلك الكتب انهُ عروس ولم يكتفوا بذلك بل احيوها في مخيلتهم وجملوها تجميلاً فسامحهم الله وغفر العلم لهم

دعى انا قد رجعنا الى (كتاب الحضارة القديمة) لمؤلفه الاستاذ كمال بك فوجدنا فيه ذكراً لعيد النيل اردنا اثباته هنا نشراً للعادات العلمية الصحيحة ودفعاً للاشاعات والمفتريات. في الصفحة الرابعة والعشرين وما بعدها ما يأتي : —

« فاذا جاء الانقلاب الصيفي وأتى الماء المقدس من اسوان الى جبل السلسلة قامت القسس المقيمة في هذا الجبل او الملك الحاكم او ابنة فيتقرب بنور او بأوز ثم يلقي في الماء قرطاساً مختوماً من البردي يشتمل على امر فيه اطلاق الحرية له بالزيادة لكي يضمن لمصر الخير بفيضان معتدل

« وكانوا يحتفلون بهذا العيد سواء حضره الملك او لم يحضره لانهم كانوا يراعون الرواية القديمة القائلة ان سعادة السنة او شقاءها مرقوفة على ذلك المهرجان فان حصل منهم في شأنه اهمال او توان رفض النيل الامر الصادر اليه واغرق الاراضي والجهات

« وفي هذا الموسم كان الفلاحون يأترزون بالزاد ويأكلونه سرية ليلاً متوالية ويشربون حتى يثملوا ويستمرون على ذلك حتى يأتي يوم الموسم الكبير فتتخرج حينئذ القسس من الخراب ومعهم تمثال يزفونه على الشاطىء بالالحان والاصوات المطربة والترتيل والمدائح وصدح الآلات الموسيقية فيقولون :

« السلام عليك ايها النيل يا من ظهرت على هذه الارض واتيت لاحياء مصر .... انت البحر الفيض على البساتين التي اوجدتها الشمس لنا لتحيي جميع ما يكون في شرقها . انت الذي تقشع عن ري الصحراء حين نزولك من سماء السماء فالمقدس (سب) (اي الارض) تتولع بايجاد العيش والمقدس (نيرا) صاحب الحبوب يقدم قرابينه والمقدس (تباح) يصلح احوال الحاصل . انت صاحب الاسماك متى تجاوزت الشلال لم يعد الطير ينزل الحقول . انت صانع القمح وموجد الشعير ومطيل اجل المعايد . ان تعطلت اصابعك او اعتراك كساد صبحت الالوف من الناس في فاقة وان تقصت وقت نزولك من السماء الفنيت المعبودات والخلق وتكدرت الحيوانات وصارت الارض كباراً وصغاراً في عذاب واذا كانت الحان على عكس ذلك واستجيب دعاء الناس تصبح الارض بتهاجاً وينشرح كل ذي بطن ويهتز كل ظهر من الضحك وتضع كل سن . يا جالب الارزاق ومكثر المأكولات وموجد حسن الاشياء ... انت الذي تهتم بالقطرين فتمتلىء الخازن

وتزداد خيرات الفقراء ات الذي تستجيب دعاءهم عند تقديم النذور فلا ينقصهم شيء. وان تشييد السفن هو منتهى قصده فلا يصنعون للنيل احجاراً ولا تماثيل بتاج مزدوج ولا يشاهد ولا يدفع له جزية ولا يؤتى اليه بقربان ولا يؤثر فيه كلام السحر الخفي ولا يعرف له مكان ولا يهتدى الى مقره بسر الطلاسم السحرية. لا بيت رحيباً يكفيك ولا احد يطلع على ضميرك الا ان ذراري اولادك تشرح منك لانك تحكم كملك اوامره نافذة على جميع اهل الارض يتجلى في مشهد من سكان الجنوب وسكان الشمال وهو الذي يشفق فيخفف دموع الاعين ويفيض باحسانه واينما وجدت حلت الافراح وانشرحت الصدور ....

« ومتى مجنت يداك شيئاً صار ذهباً او فضة صارت فضة . فلا يؤكل اللازورد لكن انقع افضل من الاحجار الكريمة .... النيل معبود الثروة الذي يحسن الاراضين ويكثر السمن في بيوت الناس وهو الذي يحيي قلوب النساء الحبالى ويحب كثرة الحيوانات .... وما ارتفعت في مدينة الا صار كل شيء جيداً للغاية ووجدت جميع الخصائص لاولادك فلو غمضت عن اعطاء الغداء زالت السعادة من المساكن ووقعت الارض في ضعف شديد »

« ذلك هو غناء النيل وتلك حكاية الاحتفال بعيده خالصة عن كل شائبة. واننا لنشكر لحضرة الاديب الفاضل لفتة نظرنا لخطإ ما كتباه . فقد كان سبباً في انقاذنا من هوة الخطإ المشهور كما نرجو ان نشر هذه التفصيلات يمحو خرافة من الخرافات العالقة باذهان المتعلمين منا والمرتبطة بحضارتنا القديمة التي نعلن اسفنا لجهلنا اياها على ما فيها من الحكم المأثورة والمواعظ البليغة . انتهى بحروفه

واذ قد ذكر في عرض الكلام السابق ان المسألة كانت من العهد القبطي كتبنا الى حضرة المؤرخ القبطي المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فكتب الينا تحت عنوان عروس النيل يقول :

« فمن هذه العروس اقول انها يا بني فرية من صاحب الخطط ما انزل الله بها من سلطان ولم يقل بها احد من جماعة المؤرخين ولا الكتاب المتقدمين سواه وما كفاه ان اختلقها اختلاقاً حتى اسند تحقيقها الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث قال ولما اخبره عمرو بن العاص بخبر تلك العروس كتب اليهم يقول « قد اصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها في داخل النيل

اذا اتاك كتابي . قال فما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك ا . هـ بنصه قال المقريزي فالقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ اهل مصر للجلاء والخروج منها لانهُ لا يقوم بمصلحتهم فيها الاَّ النيل واصبحوا يوم الصليب وقد اجراهُ الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن اهل مصر ا . هـ

« اقول هـ هي كتب التاريخ بين يدي وهي كذلك في كل حين ولا سيما كتب مؤرخي العرب وما أرَ فيها شيئاً من ذلك يا بني او يقرب منهُ

« هذا الزمخشري وصاحب علوي الاجرام في اخبار الاهرام والمسعودي صاحب مروج الذهب لم يذكروا في كتبهم عن تلك العروس شيئاً ولا كذبوا على احد كما كذب صاحب الخطط . وليس ذلك فقط بل ولا تنطق آثار اجدادنا وفقوشهم التي هي اصدق ما ينقل عنهم بشيء من ذلك البتة

« واعلم يا بني انهُ قد جرت عادة اجدادك الاولين انهم عند الاحتفال باحد اعيادهم الكبرى تخرج كهنتهم بمقدس ذلك حملاً على اكتافهم او على عجلة او غير ذلك ويصعدون [illegible] اذا كانت معدودة او تنتهي بانقضاء يومهم ذلك وهم في ايام كل عيد عادات بعضها ديني وبعضها سياسي يأكلون فيها ويشربون ويطربون ويلعبون ويرقصون ماء تابوت مقدس ذلك العيد على نقر الطبول والخان المزامير (التنابيع) وينشدون الادعية والابتهالات لمقدسهم ذلك ويفعلون كما تعتبرهُ كهنتهم عملاً مشروعاً بلا تناقض ولا مبالاة

« قال هيرودتس ابو التاريخ — كانت اعياد ومواسم المصريين تعمل في مدن متفرقة بالبلاد البحرية والقبلية من مصر مثل بوبسطه وصا الحجر والمطرية وبوتو وهي التي من آثارها الآن تلول موجودة في ساحل البحر المليح مما يلي بحيرة البرلس ومدينة ساريس التي لم يعلم محلها حتى الآن وكانت تلك الاعياد دينية وسياسية . الى ان يقول وكان يصدر من المصريين في هذه الاعياد كثير من الامور الخارقة

واول اعيادهم كان عند شروق الشعرى اليمانية في اشعة الشمس وميقاتهُ شهر توت وهو اول شهورهم وكانوا يذبحون فيهِ واحدة من الضان قرباناً لمعبودتهم ايزيس وبعد مضي ايام من هذا الشهر كان يعمل موسم تحوت الشهير بهرمس وكانوا في هذا الموسم يأكلون التين ويشربون العسل ويقولون بعد اكلهِ ما احلى الحق . وفي الثامن عشر من بابه كانوا يعيدون عيد معبودهم آمون رع في مدينة ماريس وكان من عادتهم في هذا العيد ان الكاهن في الليلة المتقدمة عليهِ يأخذ هيكل قديسهم ويضعهُ في برزخ مذهب بموضع مقدس لهم قريب من المعبد وفي الغد يقربون القربين وبعد الفراغ منها عند زوال الشمس يقوم جماعة من الكهنة عند الهيكل ويقف الباقون عند باب المعبد وبايديهم العصي والمساوق لمنع دخول الهيكل اعني هيكل مقدسهم الى المعبد فاذا جاء حاملو الهيكل وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من بهِ من الكهنة وغيرهم عراك ثم مضاربة وقتال شديد يسيل فيهِ دمهم ويظل الحال على هذا حتى يدخل هيكل قديسهم المعبد ويستقر في مكانهِ . ويزعم جماعة الكهنة انهُ لم يكن يحصل ضرر لاحد من تلك الجروح . وكانوا يشيرون بهذه الاحوال الى ان حرارة الشمس المعبر عنها بايزيس قد دخلت جوف الارض لتحميها وتنمي زرعها ولهم اعياد اخرى كثيرة جداً ولكل منها رسوم وعادات منقوشة على آثارهم . ومما تقدم تعلم يا بني ان اعياد اجدادك المصريين حتى الصغرى منها كان لكل منها مقدس معبود ولهذا المقدس تمثال يشيرون بهِ الى ما وراء ايام عيدهِ من الادوار الفلكية او الانقلابات الزمنية او المواعيد الزراعية او زيادات النيل او انحداره عن الارض وانحباسهِ في مجراهُ والى غير ذلك مما هو مقرر عندهم ومشهور . على ان ما قالهُ العلامة احمد كمال بك في مؤلفهِ الحضارة القديمة مما يفعلهُ اجدادك عند مجيء الانقلاب الصيفي وانحدار النيل من اعاليهِ من انهم كانوا يأكلون ويشربون معاً والاحتفال بتمثال النيل والطواف بهِ وهم يتغنون بالالحان والاصوات المطربة والمدائح وغير ذلك هو طرف من عاداتهم الدينية والمدنية المنقوش حديثها على آثارهم والتي ذكر بعضها هيرودتس ابو التاريخ ومانيطون الكاهن المصري . وهؤلاء وغيرهم لم يبدوا تمثال النيل ذلك الذي ربما كان لعهدهِ من ذهب او فضة او خزف او حجر بعذراء جميلة كما استدلهُ صاحب الخطط

ومسخ حكايته مسخاً مميتاً . واعلم يا بني ان شريعة اجدادك المصريين كانت تحرم القتل تحريماً وتعاقب فاعليه بالقتل وكذا كانت تفعل عن يرى قاتلاً يرتكب جريمة القتل ولم يخبر بخبره فكيف تكون شريعتهم على هذا وهم يلقون في كل عام عذراء جميلة طعاماً لسمك النيل لا وابيك

« وبعد فاني اظن يا بني ان عادة الاحتفال بتمثال النيل والطواف به على شواطئه ظلت مرعية ومعمولاً بها الى الفتح الاسلامي وبعده الى عهد الخديوي توفيق ولكنها على غير ما كان يفعله القدماء فان تمثال المتأخرين فضلاً عن كونه من الطين فانهم كانوا يقيمونه كومة واحدة لا رأس لها ولا ذنب ولا شكل ولا هندام على السد الذي كانوا يحولون به بين النيل وخليج امير المؤمنين من ناحية منيل الروضة . ويسمونه (العروسة) حتى اذا وفى النيل اذرعه المقررة وبرز الامر بكسر السد في صبح ليلة مهرجانه المعتاد عمله في شهر مسرى ازاحوا تلك الكومة او العروسة مع السد الى الخليج وهم يكبرون ولعلهم يشيرون بذلك الى عروس المقريزي . وظل الحال على هذا حتى ردم الخليج وبطل دخول الماء اليه وصار طريقاً لقاطرات الكهرباء فعهد الامير عباس فبطل تلك العادة جملة ان كانت هي كما اظن » اه بحروفه

ولما وصلتني هذه المقالة المفيدة مع استأذنته في نشرها اتماماً للفائدة فاذن لي بكل ارتياح وارسلت نسختها الى ادارة مجلة الشباب المذكورة ولكنها لم تنشر لاحتجاب هذه المجلة بالنسبة للحالة الحاضرة . وبينما اقلب صفحات الافكار وجدت بها قصيدة حضرة الشاعر محمد افندي الهراوي من موظفي دار الكتب السلطانية ذكرت شعره ونزلت مكانته في قلبي لمتانة التقريض وسلامة التركيب ولكنني اصنت لتذكره نظماً هذه الحادثة التي هي من مفتريات المؤرخين . فهممت ان اكتب له شخصياً في ذلك وان ارسل نسخة مما تقدم ولكنني لم ار فائدة من ذلك فأمسكت فما ظهر عدد المقتطف لشهر اكتوبر سنة ٩١٨ وقع نظري تحت باب التقريظ والانتقاد على قصيدة حضرته وبها معنى هذه الحكاية فرأيت ارسال هذه المقالة الى المقتطف تنويراً لاذهان

الباحث الايجبتلوجي
فؤاد زكي عجمي بمصر